

حقارتها كهدف يجري خلفه عبّاد المادة، وأشادت بقيمة العمل الصالح الذي يبقى أثره.. حذّرت أمة محمد ﷺ من الانقياد إلى دعاة المادية، والاعتزاز بالمتع الدنيوية.. وما فيها من جاه أو سلطان. ثم استطردت تذكرهم بإبليس وموقفه من آدم (عليه السلام).. إذ رفض الإذعان لأمر الله تعالى واتباع المهدي الإلهي الذي جاء آدم.

هذا المغرور المتكبر، المحرض على الشر، الراض لتعاليم السماء، المثل السيء لكل عاصٍ من بعده، والأسوء القبيحة لكل ضال، هل يليق بعاقل أن يتخذ منهجه ومسلكه ومن سار على طريقته من الأبالسة اللاحقين - بديلاً لمنهج الله؟ إنه أعلن عداوته للحق والخير والهدى، فهو عدو لكل فضيلة، مخرب لكل صلاح.. فمنذا الذي يتخذ من عدوه صديقاً، ويترك خالقه ورازقه ومحبّ الخير له؟ إن من يفعل ذلك هو أحمق ظالم لنفسه حقاً.. إذ يشتري الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، والشقاء بالنعيم!!

إن منهج الله عز وجل يراد به سعادة البشر في حياتهم الدنيا وفي الآخرة.. أما مناهج زعماء الكفر والإلحاد المادية، والفوضوية والنفعية والاستغلال، ومستغلي الشعوب ومضليلهم، ومصاصي دماء العامة ومستعبيهم، فبضاعتهم مُنتنة، لا تورثهم جميعاً إلا الهلاك والخلود في التعاسة والشقاء. إن صلاح الدنيا وسلامها لا يمكن أن يتحقق بالموالاة لهؤلاء الأبالسة، الذين لا يعينهم من الأمر كله إلا شهواتهم المادية، ومراكزهم

الجن.. في القرآن الكريم

الأستاذ المرحوم : محمد حلمي محمد الشافعي *

سورة الكهف

وفي سورة (الكهف) قال الله تعالى:
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ.. كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ. أَفَسَخَدُونَ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي.. وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟ بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا!﴾ (الكهف: ٥١)

بعد أن تناولت السورة موضوع أهل الكهف كمثال طيب للفتية المؤمنين الذين آثروا حياة الكهوف والعزلة على الكفر والمتع الدنيوية، ثم ضربت مثل صاحب الجنّتين واعتزازه بما أوتي من مال وولد، وذكرت مثل الحياة الدنيا، وبيّنت مدى



* رئيس تحرير «التقوى» السابق

صنف أسمى من الملائكة، أطاعوا أمر الله فأمر الله الملائكة بالسجود معهم تأييدا ومؤازرة من أجل ازدهارهم وفلاحهم. وهؤلاء هم آدم وبنوه. وصنف ثان سقط حتى صار أحط من الإنعام، فرفضوا طاعة الله في حين أن الملائكة القائمة على الأسباب قد أطاعوا جميعا وأدوا واجبهم. هؤلاء هم إبليس وذريته.

سورة النمل

وفي سورة (النمل) يقول الله تعالى:
﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ. فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ. يَا مُوسَى لَا تَخَفْ، إِنِّي لَا أَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ﴾
(النمل: ١١)

كعادة الأنبياء.. مر موسى (عليه السلام) بعدد من التجارب الروحية، ذكر القرآن بعضها. وهي من الوحي الذي يكلم الله به المصطفين من عباده. وفي هذه التجربة رأى موسى في الكشف - أثناء رحلة العودة مع أهله من سيناء - أن هناك نارا، فلما جاءها ناداه الله تبارك وتعالى وأمره أن يذهب إلى فرعون لإنقاذ قومه بني إسرائيل من نير فرعون واضطهاده لهم. ووهب الله سيدنا موسى آيات تؤيده في مهمته، وفي نفس الوقت تدله على كيفية القيام بها. وكانت عصا موسى واحدة من هذه الآيات، تعيينه على إثبات صدقه.

وما يراه الرائي في الكشف هو من الأمور التي تحتاج أحيانا إلى تأويل وتفسير. وبيان هذا الكشف بحسب تأويل الرؤى كما

إليه من خير. ويلاحظ هنا أن القرآن وصف إتباع المنهج الإيليسي بأنهم (ذريته).. لأنه قائدهم الأول، فهو منهم بمنزلة الوالد وهم الأبناء.. وذلك مماثلا لوصف الناس بأنهم بنو آدم باعتباره معلمهم وإمامهم الأول إلى الهدى والخير.. وأنهم مكلفون بإتباعه وطاعة منهجه، فهو كوالدهم وهم بنوه.

وقوله تعالى ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ يعني تكليف الملائكة بالعمل في خدمة الرسالة التي يقوم بها آدم.. فهو سجدوا تكريم وتبجيل وتأيد. وصدور الأمر للملائكة هو الخطوة التنفيذية الأولى في للمشروع الذي قدّره الله في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.. ولا بد أن يتضمن بعث آدم ودخول الجميع في نطاق التكليف بطاعته، لأن هذا هو الأصل والمراد. ويتضح ذلك من قوله ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وهذا يعني أن إبليس ومن هو منهم قد صدر لهم الأمر الإلهي بالطاعة عن طريق الدعوة النبوية من آدم.

كما يُفهم أيضا من قوله تعالى ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي اسجدوا لله مع آدم أو لأجله. فاللام تفيد السببية أو المعية، فتكون اسجدوا بسبب مهمة آدم، أو إقرارا بأنه مستحق للخلافة.. أي نفذوا أوامر الله المتعلقة بمهمة آدم، وأعينوه في مهمته.. مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (غافر: ٥٢) فالسجود هو لله تعالى مع آدم أو لأجله.

كما أن الآية تميز بين صنفين من البشر،

الدينيوية، التي تخوّل لهم السلطان والتسلط والشهرة، وتسيير دفة الأمور وتقديم الصفوف ولفت الأنظار. ومن ورائهم أهل النفاق من آكلي الفضلات والرمم.. يتملقونهم وينفخون في باطلهم بين الناس، ويحصلون بذلك على شيء من الفتات. أما ما يصيب الناس بعد ذلك فلا يعينهم أبدا. إنهم لا يرفعون شعارا إلا لتخدير العامة وتضليلهم، ولا يسئون قانونا ولا يسلطون أجهزة أعلامهم وزبانية شرطتهم.. إلا حفاظا على مصالحهم، ودعمًا لهيبتهم، ومسايرة لأهوائهم وشهواتهم. ولا يدخلون حربا إلا إرضاء لغرورهم، أو طمعا في إغتناب ما بيد غيرهم، أو كسبا لمواقف سياسية كاذبة. كيف لعاقل أن ينسى ما فعله إبليس «الزعيم الأول».. مع آدم «الني الأول»؟ إن الآية الكريمة تنبه الناس ليعرفوا الفرق بين إبليس وآدم. إن آدم وخلفاءه مرابا للكاملات الإلهية. وإبليس وذريته تماثيل وأصنام الغطرسة والكبر، واستعراض القوة والسلطة، والتضليل بكاذب من الوعود وباطل من الأماني ذات الرنين المدوّي.. والمضمون الأجوفا الفارغ من الصدق والخير!! ما أنعس ذلك الذي لا يفرق بين الأبالسة في ثيابهم الثمينة، وكلماتهم المعسولة المسمومة.. وبين أهل السماء في تواضعهم وصدقهم، وفي تقواهم وطهرهم، وفي ترفعهم عن الماديات والدنايا، وفي زهدهم في طلب السلطان والعلو في الأرض، وفي تمسكهم الفعلي بمنهج الله، وفي قدوتهم الطيبة لما يدعون

يلي: النار تأويلها (المحبة الإلهية) وحرارتها، ففيها الدفء والهداية، تشعهما في كل اتجاه، فتبارك من فيها ومن حولها. أما العصا فهي (قوم موسى) أي بنو إسرائيل. والجان - وهو الحية الصغيرة السريعة - ترمزل (عدو). ويبين الكشف أن موسى مكلف بالعودة إلى قومه بني إسرائيل، لأنه إذا تركهم استمروا في فسادهم وحياتهم الشريرة، وظلوا أعداء لأنفسهم. ولكن إذا أخذهم وضمهم إلى رعايته انقلبوا عصا مباركة فيها النفع والخير، وليس من ورائها أذى. ومحبة الله تعالى سوف تشمل الجميع.. تبث فيهم دفاء الحياة الصالحة، وتجعل منهم جماعة متألفة متآزرة من الأتقياء الصالحين.

غير أن ما يعيننا في هذا البحث هو ما جاء في الآية الكريمة وصفا لعصا موسى التي ألقاها فإذا هي ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾، وفي آية أخرى ذكر الله تعالى أن موسى ألقى العصا ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (طه: ٢١)، فإطلاق اسم الجان على الحيات والثعابين التي تتميز بالاختفاء عن الأنظار.. يدل على أن الكلمة لا تطلق على الأرواح الشريرة فقط كما يتصور بعض الناس.. وإنما تطلق أيضا على الثعابين والحيات وغيرها من الدواب والحشرات المشابهة في اختفائها.

وبعد ذلك جاء في السورة نفسها - سورة النمل - قول الله تعالى: ﴿وَحَشْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل: ١٨)

وتشير الآية إلى بعض النعم الإلهية التي تفضل الله بها على سليمان (عليه السلام)، إذ آتاه الله ملكا كبيرا بمعيار زمانه، يقوم على حمايته جيش عظيم. كان جيشا منظما، جمع فيه كل القوى المتاحة له. فكان فيه فرق من المقاتلين الأشداء من قبائل الجبال المشهود لهم بالصلاية والبأس والمهارة القتالية العالية وهم (الجن)، وفرق من قوات المشاة العادية وهم (الإنس). وفرق من القوات ذات الحركة السريعة من الفرسان، أو من رجال المخابرات الذين يتزاسلون ويتواصلون عن طريق الحمام الزاجل أو غيره.. وهم (الطير). ويمكن أن يكون (الجن) هم المقاتلون الخبراء في التمويه والتخفي، وذوي المهارات الخاصة في الإنشاءات، أو بلغة عصرنا «سلاح المهندسين»، وجسم الجيش من المشاة والفرسان. ثم السلاح الخاص من ذوى المؤهلات العليا في الفكر والعلم أو المستشارين - بلغة العصر - وهم (الطير).

وإذا ربطنا بين هذه الآية وما جاء في سورة الأنبياء في موضوع مماثل: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ. وَكُنَّا فَاعِلِينَ *.... * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُم حَافِظِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٠-٨٣)

يتبين لنا أن الجبال والطير كانت مسخرة مع داود والد سليمان (عليهما السلام). والتسخير هو الإيجاب والإذلال، أو الاستخدام بأجر أو بغير أجر. ولا مجال

للجمع بين داود.. الإنسان الملك النبي، وبين الجبال الجامدة والطير والأعجم.. والآية في معرض الحديث عما آتاه الله داود وسليمان من الحكم والعلم ﴿وَوَكَّلْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَى الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ مَا يُقْوِي وَيَسَانِدُ حُكْمَ دَاوُدَ أَوْ يَزِيدُ عِلْمَهُ. وَمِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ لَا يَكُونُ تَكَرُّمًا يُذَكَّرُ فِي مَجَالِ الْحَدِيثِ عَنِ النَّعْمِ الَّتِي يَتِمَّنَاهَا الْمُسْلِمُونَ وَيَعْمَلُونَ عَلَى اكْتِسَابِهَا. إِنَّ هَذَا الْمَعْنَى يَجْعَلُ مِنْ دَاوُدَ رَاهِبًا أَوْ «دَرُوشًا» يَعِيشُ فِي الْجِبَالِ بَيْنَ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ.. مُمْسِكًا بِمَسِيحَةٍ يَتِمَّتُ بِكَلِمَاتِ التَّسْبِيحِ اللَّهُ تَعَالَى، فَتَزِدُ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ تَسْبِيحَاتِهِ؛ هَذَا عَلَى فَرَضِ أَنَّهَا تَفْهَمُ قَوْلَهُ، أَوْ أَنَّ لَهَا لُغَةً يَفْهَمُهَا دَاوُدُ. الْمَهْمُ أَنَّ دَاوُدَ لَوْ كَانَ يَفْعَلُ هَذَا مَا نَجَحَ فِي أَنْ يَكُونَ مَلِكًا قَوِيًّا ذَا حُكْمٍ وَسُلْطَانٍ.. يَشْتَغَلُ بِسِيَاسَةِ مَلِكِهِ الْعَظِيمِ، وَيُبَلِّغُ رِسَالَتَهُ كَنَبِيِّ مَعْلَمٍ لِقَوْمِهِ، وَهُمْ أَوْلَى بِوَقْتِهِ مِنَ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ.

الواقع إن تسبيح الله تعالى لا يصدر إلا من كائن مُدرِك مُريد. والإنسان وحده هو المسيِّح الحقيقي لله تبارك وتعالى. أما إذا نُسب التسبيح لغير الإنسان.. فإنما يكون بمعنى الخضوع لله تعالى، كما يعني تسخير هذه الكائنات كي تُعين الإنسان وتحمله على التسبيح. فالملائكة الكرام يسبحون الله.. لأنهم جنده المنفذون لأمره، وما يقومون به يعكس في الكون كمالات الله تعالى، فيدر كها الإنسان العاقل فيسبح الله. وتسبح الجبال وغيرها من الكائنات بمعنى أنها تكشف للإنسان

والمعاد بالجمال التي تسبح

مع داود عليه السلام هم أهل الجبال، أي القبائل الجبلية المعروفة بشدة المراس، والتي تمكن داود من إخضاعها والسيطرة عليها تحت حكمته بفضل الله تعالى ونصره.

«الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب» (سنن أبي داود). وهذا يعني أن البعد عن المؤلف والشذوذ شيطنة. كذلك من الشيطنة أيضا: العصيان والخروج على النظام، وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى، تكملة للآية السابقة:

﴿وَأَخْرَجْنَا مَقَرًّا مِّنَ الْأَصْفَادِ﴾ (ص: ٣٩)

وهؤلاء هم المتمردون على حكم سليمان، الذين مكّنه الله تعالى من قهرهم وسجن زعمائهم، والسيطرة عليهم وإدخالهم في خدمة مملكته.

وقد روي عن ابن عباس وعن ابن مسعود ومجاهد (رضي الله عنهم) أن الشياطين هم زعماء الفتنة، أي زعماء الثورات والانقلابات والاضطرابات والخروج على النظام. وكلمة «الشياطين» بمعنى زعماء الفتن وردت أيضا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ (البقرة).

ومحمل القول أن داود (عليه السلام) وجد المعاونة في أداء مهمته النبوية كداعية إلى عمارة الأرض وتسييح الله تعالى..

الذين أعانوا داود على تسيير دفة الحكم، وتوطيد المنهج الإلهي في ربوع دولته. وبذلك كانت دولة بني إسرائيل في عهد الملك النبي داود (عليه السلام) دولة صالحة، يتردد في جنباتها تسييح الله تعالى وشكره على نعمتي الملك والنبوة.. وما يترتب عليهما من نعم أخرى جزيلة.

هذا، ويخبرنا القرآن الكريم أن الكون بسمائه وأرضه وجباله وبحاره وطيره ووحشه وأنعامه.. كله مسخر للإنسان إلى يومنا هذا وأن بوسعنا أن نجعله وسيلة لتسييح الله تعالى إذا ما أحسن استخدامه في خدمة إخوانه في الإنسانية، وإذا أقام به حكومة الله في الأرض. فالتسخير لم يكن خاصا بداود وحده وإنما هو نعمة عامة للإنسان عبر الدهور. قال - عز من قائل:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجنّة: ١٤)

والمراد بالشياطين الذين يغوصون ويعملون أعمالا أخرى.. العمال المهرة وأهل الحرف، كالنجارين والبنائين والحدادين. فالشياطين تشمل الغواصين المهرة من أهل الخليج العربي الذين كانوا يغوصون لطلب اللؤلؤ والمرجان. وقد شرحت آيات سورة (ص) عملهم في قوله تعالى:

﴿وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ (ص: ٣٨)

فالشيطنة هنا تعني الخروج على المؤلف، أي المهارة الزائدة في الحرف والفنون. ولقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

ذي البصيرة كمالات خالقها وربوبيته الحقّة، فيهتف مسبحا بحمده شاكرًا لأنعمه. فقول الله تعالى:

﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٥)

يعني أن الإنسان إذا كان من أولي الألباب ونظر في خلق الله كله لتبين له بكل وضوح أن خالق هذه الكائنات إله كامل المحاسن منزّه عن كل النقائص. ويتضح هذا من قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَتَقْوَاً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ..﴾ (آل عمران: ١٩٢)

والمراد بالجمال التي تسبح مع داود عليه السلام هم أهل الجبال، أي القبائل الجبلية المعروفة بشدة المراس، والتي تمكن داود من إخضاعها والسيطرة عليها تحت حكمته بفضل الله تعالى ونصره. ومثاله قول الله في سورة يوسف:

﴿وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا..﴾ (يوسف: ٨٣)

أي أسأل أهل القرية وأهل القافلة. هذه القبائل الجبلية خضعت لداود عليه السلام، وسارت وراءه توطيّدًا لحكمه، وعملاً لنشر تسييح الله، والعمل بشريعته تعالى في دولة بني إسرائيل الأولى.

والطير هم عليّة القوم.. الخاصة من العلماء والمفكرون وأهل التقوى والصالح

العظيم، والسفن الضخمة التي كانت تمخر عباب البحار شهورا لتنقل تجارته الواسعة. ويظهر اهتمامه بالمخابرات عن البلاد المجاورة للملكه من تفقده المنتظم لعيونه الذين بثهم في الخارج ليأتوه بالأخبار، والتقائه بهم في مواعيد محددة يسمع تقاريرهم، ومنهم «المهدهد»، الذي كان عينًا له في بلاد سبأ، ولعله سُمي بهذا الاسم الحركي لمقدرته الكبيرة على النيش وراء الأخبار والأسرار الدفينة.

وكان والده داود (عليه السلام) قد أخضع الأقاليم الجبلية المجاورة، وحشد أهل العلم والخبرة في خدمته، واستخدم الطير في المخابرات والمراسلات، كما يتبين من قوله تعالى:

﴿وَأذْكَرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ١٨)

وتبين قوة جيش سليمان وهيبته مما قالته (النملة) تُحَدِّرُ قومها - وهم قبيلة كانت تسكن واديا بين الجبال، سمي باسم وادي النمل، إما لكثرة مستعمرات النمل به، أو لأن القبيلة كانت كثيرة العدد، أو لأن القبيلة كانت تعرف باسم قبيلة النمل. وظاهرة تسمية الناس والقبائل بأسماء الحيوانات والحشرات هي شائعة مثل

وعندما تختفي عن نظره يستعيدها ويكشف عن رفقه بها وسعة درايته بتعليمها.

أما اهتمامه بتدريب الطير واستخدامها وتفهم عاداتها وقدراتها فيبدو من قوله تعالى على لسان سليمان:

﴿.. يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ..﴾ (النمل: ١٧)

فَعَلِمَ مَنْطِقَ الطَّيْرِ أَي لُغَتِهِ.. يَعْنِي أَنَّهُ - بفضل الله- توفر لديه المختصون الذين يجيدون تدريب الطيور بحيث تفهم الطير ما يراد منها، وكأن رجاله والطير يعرفون لغة بعضهم البعض. ويمكن أيضا أن تكون الآية الكريمة إشارة إلى المستوى العلمي الرفيع، الذي توافر في شخصه وفي أهل العلم من رجاله. فالطير هنا قد تعني أيضا العلماء ذوى الفكر العالى والأدب الرفيع. أما علمه الغزير وتشجيعه لأهل العلم فيتبين من قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا..﴾ (النمل: ١٦)

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ. وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٨٠)

وأما اهتمامه بالإنشاءات والبناء والسفن وما إلى ذلك فيبدو جليا من الآيات العديدة التي تتحدث عن عمليات الغوص والبناء والقُدور الكبيرة لإطعام الجيش

ممن جعلهم الله في خدمته من القادة والعلماء والصلحاء ومهرة الصناع. وقد اتسع ملكه وتوطد حتى استخدم الطير في نقل البريد والربط بين أجزاء دولته. ولقد أقام له العمال المهرة من المنشآت ما يُظهر عظمة ملكه.. وبالتالي عظمة الله الذي بعثه نبيا وجعله ملكا.. مما يكشف للناس سبوحية الله وقُدوسيته.

ولقد ورث سليمان أباه داود (عليهما السلام) في الملك، وجعله الله نبيا. وازدهر ملك بني إسرائيل ازدهارا عظيما في عهده، وكانت جنوده كثيرة العدد والعدة مرهوبة الجانب، موزعة على أسلحة متخصصة، منها سلاح المهندسين والإنشاءات وهم الجن، وسلاح المشاة وهم الإنس، وسلاح المخابرات والمستشارين والفرسان وهم الطير.

ويتضح اهتمام سليمان بالفرسان من قوله الله تعالى:

﴿إِذْ غَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادِ. فَقَالَ: إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي. حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ. فْفَطَّقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ..﴾ (ص: ٣٣)

فهو يهتم باستعراض الخيل الأصيلة وفحصها، ويُعرب عن حبه لها حب الخير.. لأنها من أسلحة إعلاء كلمة الله وذكره.

وتبين قوة جيش سليمان وهيبته مما قالته (النملة) تُحَدِّرُ قومها - وهم قبيلة كانت تسكن واديا

بين الجبال، سمي باسم وادي النمل، إما لكثرة مستعمرات النمل به، أو لأن القبيلة كانت كثيرة العدد، أو لأن القبيلة كانت تعرف باسم قبيلة النمل. وظاهرة تسمية الناس والقبائل بأسماء الحيوانات والحشرات هي شائعة مثل أسماء: أسامة وحيدر، وهما اسمان للأسد، وأبو ذر (الذر: النمل)، وبني كلب وغيرهم....

الضابط بالعودة إلى سبأ ليحمل رسالة منه إلى المرأة الحاكمة. وبعد تشاور وتجاوز قررت المرأة أن تذهب مع وفد من رجال قومها لتزور سليمان فتصالحه وتهادنه. وعاد (الهدهد) إلى سليمان بالأخبار.

أراد سليمان أن يبين للملكة القادمة خطأ عبادة الشمس، وأن يبهرها بملكه العظيم، وما تحت يده من إمكانات هائلة، ليكون ذريعة لإقناعها بنبوته وما أوتيته من حكمة وهدى؛ ومن ثم هدايتها إلى الخالق الحقيقي الذي يستحق العبادة. ولتحقيق هذا الهدف طلب من خبائه (المال) أن يصنعوا له عرشا يماثل عرشها الذي وصفه (الهدهد) بأنه عرش عظيم. فتقدم أحد المستشارين (من الجن)، وهو فنان ماهر (عفريت) واثق من مقدرته - فقال: أنا أصنعه لك قبل أن تغادر مقامك في هذه المنطقة.. ومن عادة الملوك أن تكون لهم مقامات (قصور أو استراحات ملكية بلغة العصر) في المواقع الهامة، يقضون فيها فترات تطول أو تقصر حسب مقتضيات الظروف. ولعل سليمان كان يتوقع وصول المرأة مع وفدها قبل ذلك بكثير، فلم يبد على وجهه علامة الموافقة. فتقدم مستشار آخر من أهل العلم والتخطيط، يجيد حسابات التشغيل وحشد مهرة العمال ﴿عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وقال إنه يستطيع إنجاز المهمة قبل أن يعود رسول الملك من مهمته، وبذلك يكون العرش جاهزاً قبيل وصولها ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.. أي قبل أن يرجع إليك رسولك.

الحشرات والحيوانات والدواب، ومنها الإنسان، تسمى بيوتا، مثل بيوت النحل وبيت العنكبوت وغيرها، ولكن بيوت الإنسان هي التي تسمى «مساكن» لأن الله جعلها سكناً يسكن فيها الإنسان، كما في قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (النحل: ٨١)

ولفظ ﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾ في الآية يدل على أن النمل كان قبيلة من البشر العقلاء وليس من الحشرات والهوماء. ولنتابع في هذه المناسبة بعض أحداث قصة سليمان (عليه السلام) لنحرر أفهامنا من بعض الخرافات التي دارت حولها. يحكي القرآن الكريم:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* قَالَ عَفْرَيْتُ مِنْ الْجِنِّ: أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ: أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ..﴾ (النمل: ٣٩-٤١)

تحدث الآية عن ذلك العميل السري - أو ضابط المخابرات باصطلاح العصر- «الهدهد»، الذي اكتشف أخبار منطقة تسمى «سبأ»، ولعل أهلها كانوا من أهل اليمن الذين هاجروا إلى الشمال في تخوم فلسطين، وأطلقوا هذا الاسم على أرض مهجرهم كما هي عادة المهاجرين، وكانوا غافلون عن عبادة الله فكانوا يسجدون للشمس، وكانت ترأسهم وتسوس أمورهم سيده. وكلف سيدنا سليمان هذا

أسماء: أسامة وحيدر، وهما اسمان للأسد، وأبو ذر (الذر: النمل)، وبني كلب وغيرهم. فحذرتهم المرأة الخبيرة من التعرض لجيشه أثناء مروره بواديهم حتى لا يقضى عليهم دون جهد كبير.

ولا أحسب أن عاقلاً يتصور أن حشرة النمل تستطيع أن تتعرف على الجيوش وقادتها وقوتها. أو أن النمل يصدر منه صوت أثناء اتصال أفرادها مع بعضها البعض، أو أن سيدنا سليمان يسمع هذه الأصوات ويدرك معانيها.. فليس هناك أي إشارة في القرآن تدل ذلك. كما أنها ليست معجزة لسليمان لأنه لم يشهدها أحد معه فتكون دليلاً على صدقه مثلاً. والناس يجوبون المناطق التي يسكنها النمل ولم يشهد أحد هروب النمل إلى بيوتها عندما يطأ الناس مناطقها. كما أن حديث النملة يدل على أنها عاقلة تحاطب جماعة العقلاء، كما يبين قوله تعالى:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٩)

فواو الجماعة في ﴿ادْخُلُوا﴾ والضمير في ﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾ و ﴿لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾ للعقلاء، بينما نجد أن الله تعالى عندما تحدث إلى جماعة النحل -وهي حشرة مثل النمل- خاطبها بصيغة التانيث، دلالة على غير العاقل، فقال:

﴿اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا.. كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ.. فَاسْأَلِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا.. يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا..﴾ (النحل: ٦٩)

كذلك فإن الأماكن التي تعيش فيها

وتمضي الآيات بعد ذلك تسرد الأحداث.. فتمت صناعة العرش، وحمد سليمان ربه، وطلب من رجاله أن يجهزوا صرحا من الزجاج يُجْرُونَ الماء من تحته. وجاءت المرأة، فشاهدت وأدركت بذكائها الرسالة الضمنية فيما أعده لها سليمان، فاقتنعت بوحداية الله تعالى وأسلمت له، وآمنت برب سليمان.

أما الرسالة فقد كانت درسا عمليا ذكيا. عندما رأت المرأة الصرح ﴿حَسْبَتْهُ لُجَّةٌ﴾ أي ظننته ماء جاريا فشمرت عن ثوبها، ولكن سليمان أفهمها أن ما ترينه ليس الماء.. وإنما زجاج ﴿صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ يجري الماء من تحته. فأدركت المرأة الرسالة النبوية الذكية. لقد ضرب سليمان لها المثل الذي يوضح كيف أن الشمس التي تراها بجواسها المادية ليست

هي الإله المعبود، ولكن الإله الحق هو الذي يُسَيِّرُها ويُسَيِّرُ الكون كله معها. إنه إله لا تدركه الأبصار لأنه فوق المادة وفوق الأبصار. إنه موجود وإن كان لطيفا مستترا عن العيون. لقد رأت المرأة الماء ولم تر الزجاج لأنه شفاف لطيف، ولكنه موجود والماء يجري من تحته. وهكذا فهتمت المرأة، واطمأن قلبها، وأسرعت تُبدي ندمها على ما فرط منها من عبادة لمظاهر قدرة الله الخالق، وأعلنت بعبادتها لسليمان على عبادة الله وحده.

﴿قَالَتْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي. وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٥)

والمثل العملي الذي ضربه سليمان للمرأة لا يزال صالحا لتوجيه أنظار أولئك الذين لا يؤمنون بالله، زعمًا منهم أنهم لا

يعترفون بوجود إلا بما يقع تحت حسهم. إنهم هم أنفسهم يعترفون بوجود الجزئيء والذرة والإلكترون والموجات اللامرئية والكهربائية وغيرها.. يعترفون بوجودها على أساس من دراسات آثار وجودها في معاملهم ومختبراتهم. وما هو الكون كله.. مختبر هائل ليعملوا فيه عقولهم وعلومهم.. وفي وسعهم -إذا حرروا عقولهم من إصار التعصب والهوى- أن يروا يد القدرة الإلهية في ذرات الكون أو في عمالقة الجرات. إن من يتفكرون في خلق السماوات والأرض وما فيهن، وفي خلق أنفسهم وغيرهم من الكائنات.. ليرون الحكمة والعظمة والتنظيم والتدبير والرعاية والقوامة الكاملة.. التي لا تكون إلا لخالق واحد، ليس كمثل شئ، له الأسماء الحسنى، فتبارك الله أحسن الخالقين! (يُتبع)

عيد سعيد

عيد الأضحى المبارك هو عيد التضحية والفداء في سبيل الله. جعله الله عيد الخير والبركة على أمة المصطفى ﷺ، وكتب لحجاج بيت الله حجًا مبرورا وسعيا مشكورا وذبا مغفورا وعملا مقبولا، وأعادهم إلى ديارهم سالمين غانمين. بهذا العدد من «التقوى» نكون بفضل الله وعونه على وشك الانتهاء من إنجاز مجلدنا الثالث عشر. ومنتزه هذه المناسبة لنهنيء القاريء الكريم، ونهنيء أنفسنا بنعمة الخدمة الدينية، وتقديم أحسن ما نستطيعه لأمة سيدنا محمد ﷺ من تعاليم الإسلام التي أحياها وأعادها ملء الأسماع والأبصار.. حضرة الإمام المهدي عليه السلام، وسار عليها ورعاها خلفاؤه الكرام. نسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم، وألا ينقطع عنا مددُ عونه وتأييده، وألا نُحرم أبدا من نظرة عطفه ومحبته، وأن يكتب للجماعة الإسلامية الأحمدية الفلاح والنجاح لتحقيق الأهداف التي من أجلها أقامها سبحانه.. ألا وهي جمع كلمة المسلمين تحت راية المصطفى ﷺ، وإحياء التوحيد الخالص والعبودية لله في قلوب الناس، والقضاء على سطوة الدجال ونفوذ الشيطان في نفوس العباد، وتحويل هذه الدنيا إلى جنة التسبيح بحمد رب العالمين!